

السلطوي في قصص غادة السمان

The authoritarian in the Stories of Ghada al-Samman

أ. قيدوش فاطمة

قسم اللغة والأدب العربي - المركز الجامعي عبد الحفيظ بالصوف-ميلة (الجزائر)
 .guidouche@yahoo.fr fatima

تاريخ الإيداع: 2020/04/30 تاريخ القبول: 2020/07/11 تاريخ النشر: 2020/11/30

ملخص:

يتناول هذا المقال، تمظهر الآخر السلطوي في القصة القصيرة العربية النسوية، حيث يتم تتبع هذا التمظهر من خلال قصص الأدبية غادة السمان، هذه الأخيرة التي كسرت حاجز الصمت وحررت الكلمة، وخاضت في مواضيع كانت حكرا على الرجل، كما كشفت عن الممارسات القمعية من السلطة الذكورية (العادات والتقاليد، السلطة السياسية، سلطة المستعمر) على المرأة باعتبارها الكائن الهامشي الدوني، كما أنّ الكاتبة لم تقتصر في طرحها على معاناة المرأة فحسب، بل كشفت كذلك عن الممارسة التعسفية على الرجل أيضا لإيمانها القوي بالمساواة بين الجنسين

الكلمات المفتاحية: الآخر، القصة، غادة، السلطة، المجتمع.

Abstract:

This article examines the authoritarian other in the Arab feminist short story. This story is traced back to the stories of literature writer Ghada al-Samman, the latter who broke the silence and liberated the word, and engaged in subjects that were exclusive to men. From male authority (customs and traditions, political power, colonial power) to women as marginal marginal beings. The writer not only addressed women's suffering but also exposed this abusive practice to men for their strong belief in gender equality.

Keywords: Ghada, story, power, society, the other.

1. مقدمة :

عاشت المرأة حالة من الإقصاء والتهميش، والتَصققت بها النظرة الدونية واقتصرت وظائفها على خدمة الرجل وتلبية حاجاته، غير أنه ومع ظهور الحداثة، ظهرت تيارات نسوية تطالب بالحق الغائب والقضاء على هذا التغييب والتهميش، أين خاضت معارك لتحرير الذات من القيود والمطالبة بحقها في الحرية التامة والمساواة والكشف عن المسكوت عنه.

قفزت إلى الواجهة الدراسات المنظرية لذلك، وأصبحت محلّ نقد وفحص وارتكزت هذه الكتابة على جمالية السرد، كاشفة الأطر الاجتماعية وما خلفته الأعراف والتقاليد والثقافة عموماً من حصار على الأنثى في الواقع عموماً، وسعت المرأة الكاتبة إلى الترميز والتخييل، وكسر الحواجز والطابوهات المفروضة عليها لتنتج إبداعات راقية تجسد واقعها المعاش.

تعتبر غادة السمان واحدة من اللاتي رفضن هذا التهميش وما فُرض على المرأة من ضغوطات، والتي لم تجد في كثير من الأحيان إلاّ الرضوخ والاستسلام لأن الآخر السلطوي يمتلك كل القوة التي تمكنه من السيطرة على المرأة بحجة أنها كائن ضعيف لا يقدر على اتخاذ القرارات، وفي ذلك تنوعت هذه الوصايات وتحولت إلى سلطة قهرية تمارس العنف ضد المرأة.

فقد تعددت صيغ هذه السلطة من اجتماعية تجعل من العادات والتقاليد قوة ردع للمرأة، وسلطة سياسية تستغل هذه المرأة في الترويج لأفكارها باعتبارها في نظر المؤسسة عنصراً مؤثراً لما تمتلكه من وسائل إغراء، لتأتي بعدها سلطة أخرى، وهي سلطة العدو، وكلها تجتمع تحت لواء واحد يعمل على قمع المرأة والحدّ من حريتها.

1- الآخر المجتمع :

ينزع الإنسان بطبيعته إلى الاجتماع بغيره من البشر فيحدث ذلك التواجد تجمعاً إنسانياً يخلق بين هذه الجماعة نوعاً من الألفة والتعاون، والتي تضمن استمراريتها وبقائها من خلال إخضاع هذه الجماعة لقانون عام يضبط هذا السلوك ويحافظ عليه.

تعدّ العادات والتقاليد والأعراف أحد النواميس التي يسعى الإنسان لاحترامها ضماناً لديمومته، حتى غدت من الأمور المثالية والمقدسات التي يحرم المساس بها، ويعجّ المجتمع العربي بمجموعة من الأفكار والتصورات ترسبت في اللاوعي الجمعي، الذي يرى في المرأة الآخر المختلف جسدياً وفكرياً في حين يُعلي من قيمة الذكر.

وتحضر العادات والتقاليد بوصفها من أبرز السلطات الرمزية التي تحاصر المرأة وتحاول أن تفرض عليها نمطاً محدداً من السلوك الاجتماعي، يبدأ بمجموعة من اللآءات والنواهي والموانع التي

تبدأ في تشكيل شخصية الأنثى ، وهذا ما أشارت إليه الباحثة النسوية سيمون دييوفوار، على أن المرأة لا تولد امرأة وإنما المجتمع هو من يجعلها كذلك، "فتخضع البنت منذ الصغر لرقابة مسلكية و أخلاقية صارمة ، فصوتها يجب أن يكون خافتا وضحكتها منخفضة ، وحركتها هادئة ، ومشيتها متزنة ونظرتها منكسة ولباسها محتشم"¹. فالمجتمع هو من يفرض عليها نمطا معيناً من اللباس والسلوك والأخلاق تنضبط به في مسيرتها الحياتية .

تُدين غادة السمان سلطة العادات والتقاليد والأعراف التي تكبل المرأة وتحدّ من طموحها وتقف حاجزا أمامها، بل الأكثر من ذلك تُقيدها بصورة نمطية تكون في ذهنية الرجل كما جاء في مقطع من قصة "القمر المربع" "لها فم يأكل وليس لها فم يحكي . ما قبل فمها غير أمها. لا تغادر البيت دونما استئذنانك إلا إلى قبرها. لا تلد إلا الصبيان. خادمة في النهار وجارية في الليل. خاتم في أصبعك تديره كما تشاء وتخلعه حين تشاء وإذا فكرته قال لك شبيك لبيك عبتك بين يديك"².

وبذلك يضع المجتمع العربي امرأته في نموذج ثابت لا تخرج عن مقياسه، فهي المرأة الصامته التي تقبل بكل الأوامر، لا تعارض، لا تناقش، لا تحاور، تمثل الطاعة العمياء، شريفة طاهرة منذ ولادتها حتى تدخل بيت زوجها، والذي تدخله من باب الزوجية ولا تخرج منه إلا إلى قبرها كناية عن حبس المرأة داخل البيت ومنعها من الانفتاح على الخارج، امرأة تقوم بشؤون البيت وخدمة الزوج وراحته وتربية الأولاد ، وكل ذلك تهميش للأنثى منذ المولد، فهذه الصورة النمطية التي يسعى المجتمع الذكوري لترسيخها من خلال التنشئة الاجتماعية عبر ما يثبته من أعراف تصبح مع الوقت قناعات عند المرأة نفسها تتصرف على منوالها وتخضع لها .

كما تسعى الكاتبة لكسر هذه الحواجز من خلال إعلاء قيمة حرية المرأة متحدية في ذلك السلطة الاجتماعية التي تكبلها بنوع من القيود ، وهو ما نقرأه في قصة " لا بحر في بيروت" من المجموعة الموسومة بالعنوان ذاته حيث يظهر جبروت المجتمع الشرقي على المرأة الساعية لحرمتها ، فتتمرد على هذه السلطة التي ربتها وشكلتها على نمط معين توارثته الأجيال ومررته الثقافة " هذه الجديلة التي صنعتها الراهبات لك في عشر سنوات لا تصلح للعالم وليبروت"³.

يعمل المجتمع بأعرافه على تشكيل الفتاة منذ نعومة أظفارها فتكون وفق ذلك المطيعة الخلوقة المليئة أنوثة ، المحافظة الصائنة لعفتها من خلال انضباطها، وتكون سلطة المجتمع هي الحارس على تطبيق ذلك ، وبمجرد الخروج عن ذلك يعني الرفض والإقصاء "الرصيف مرتفع جدا وسوف يكون منظري مضحكا وأنا أتسلق السور وأهبط الصخور القليلة لأبلغ البحر... سوف يظنّ المارة أنني مجنونة . ما زلت أخافهم"⁴.

تحس الأنثى بقيد المجتمع وما يفرضه من موانع حينما يعرّبها ويفضح تصرفاتها الساعية للتحرر، ويبعث فيها الخوف، وتجد البطلة أنه من المستحيل الوصول إلى منبع الحرية ولامسته دون تحدّي للعادات والتقاليد " ما دمت أخاف الآخرين دون أن يكون هنالك ما يدعو إلى ذلك فإنّي لن أحصل على زجاجة من ماء البحر"⁵.

فالخوف يمنعها من تحرير ذاتها في مجتمع مقيد هو الآخر، غير أن المرأة تسعى سعياً شاقاً لحرّيتها " تسير وتسير عارية القدمين في دروب طويلة من الحصى والماء البارد على شاطئ البحر... أن تقترب من الماء وتشرب لكنّ عشرات العيون تتأملها بسخريّة، عشرات الأصابع تشير إليها باحتقار... وهي تخاف شبكة الأصابع الساخرة وهي ترتعد أمام النظرات العنكبوتية المستنكرة. تتسمّر في مكانها"⁶.

تتمرّد البطلة على النسق الاجتماعي العام وتبحث عن الحرية؛ حرية خاصة تدعو إليها النسوية، وهي ليست حرية مظهر ولا حرية ممارسات، بل حرية الذات، بتحريرها من العبودية. وتحدّي المرأة السلطة الاجتماعية حين تنطلق من ذاتها وأفكارها، " لقد اقتلعت عيونكم المدقوقة في وجهي وبصقت كلماتكم المملصقة على لساني، وتحررت من آلية في الإحساس من ردود الفعل المسبقة الجماعية .. لقد وُلدت اليوم .. الآن "⁷.

ثم تعيب الكاتبة على مجتمع يحمل عادات يغلفها الخطأ ويرغب في تقييد المرأة بها، فهذه العادات البالية ذاتها تمنع تقدمه، تقول " ألم يكن منطري وأنا أففز كحيوان غريب وأرقص التويدست أكثر سخافة وبلاهة مما هو الآن؟ ألم يكن وجهي بلا تعبير وجسدي بلا ضابط؟ أما كنت أهين إنسانيتي ساعتها .. لماذا لم يسخروا وقتها "⁸. تطرح عديد الأسئلة والاستفهامات لتبحث عن إجابة لزدواجية هذا المجتمع الذي يرى في الخطأ صواباً، فهذا الذي يدّعيه المجتمع تحرراً مشيناً لإنسانية الإنسان، وإنّما الحرية الحقيقية هي تحرير الذات من كل القيود.

وتظهر سلطة المجتمع على الأنثى كذلك في مجموعة "لا بحر في بيروت" وتظهر السلطة الاجتماعية بعرفها مانعاً أمام تجربة حبّ فتاة لرجل متزوج له أبناء، يرفض العرف مثل هذه العلاقة المشينة لأنّها مخلة بالأخلاق ومفسدة للأسر " سيقولون هرباً .. ولن نلتفت لنقول لهم أنّنا لم نهرب وإنّما رحلنا حينما فقدنا إحساسنا تماماً بوجودهم "⁹.

تقف البطلة في مواجهة هذه السلطة وتشهر سيف تحديها ودفاعها عن عاطفتها وحقها في خوض هذه التجربة بحرية، دون موانع لتعيش حياتها الخاصة بعيداً عن كل التأثيرات السلبية عليها حينما تعزم الرحيل بعيداً عن هذه السلطة التي لم تمنحها فرصة عيش كريم بحريّة.

تُحمّل الكاتبة الشخصية الأنثوية بعضاً من مفهومها عن التحرر والحرية ، حينما تدفعها لخوض التحدي الكبير والتخلص من هذه العادات البالية الكابحة للحرية ، وهي دعوة صريحة لتمزيق روابط هذه الثقافة والتي أصبحت قيداً خانقاً يقتل الطموح ويصادر الحريات .

إن هذه العادات البالية تقف حاجزاً أمام حرية الشخص وتقرر مصيره ، فهي دعوة من طرف الكاتبة لتخليص المجتمع وتحريره من هذه الشوائب التي تهكّه ، وحينها فقط يمكن للنفس أن تتحرر وتثبت قدرتها على الحياة فهذا الموروث الثقافي البالي هو من يقيد النجاحات .

تمارس السلطة الاجتماعية عنفها على المرأة وكذا الرجل على السواء ، حينما ترغمه على الرضوخ للعادات والتقاليد والالتزام بها والخضوع لعاداته المفروضة " ألا تجل من البكاء يا حسان ؟... وأزداد التصاقاً بقامته المديدة وأسند رأسي إلى ركبته متوسلاً حنانه يبعدي عنه بغشونة ويصرخ بي لا تبك في عمرك .. عيب " ¹⁰ .

فهذا التحذير والسلوك الفض لأب يشكل في ضمنه ذلك السلوك الأبوي المتوارث ، والذي تزكيه الثقافة في تكوين الصفات الشديدة والعنف والقوة ليكون الذكر شديداً وقوياً ، فالذكر يتشكل بطباعه العنيفة من الرصيد الثقافي المتوارث وتُحمّله هذه الثقافة من التذبذب والازدواجية ما تجعله يتراجع في كثير من الأحيان أمام قراراته ، ويجعله في حيرة من خلال طرح هذه التساؤلات التي تدخله في تردد بين الإقدام على الفعل أو العودة دونه ، ويتساءل وكونه رجلاً ، أن تكون له الشجاعة لتخطي هذه العادات والمغامرة والارتباط بامرأة تناقض طباعها طباع المجتمع الذي يعيش فيه " . يجب أن أفكر في الأمر ثانية أن أفكر طويلاً ، ها أنا مربوط من قدمي بحبل مطاط متدلّ فوق الهاوية أقداري تعث بي تصعد وتهبط بي نعم. لا . سأزوج منها .. لن أجرؤ بلى سأفعل ، لا ، لن أجرؤ . نعم لا . نعم لا " ¹¹

تدخل هذه الشخصية الذكورية في حيرة كبيرة أمام تقرير المصير لأن المجتمع التقليدي يرغمها على الامتثال لقوانينه وأعرافه التقليدية . ويفرض عليه امرأة بمقاييس أخلاقية معينة في حين لديه رغبة تشده لهذه المرأة ، وفيها نجد أن الذكر ذاته يعاني من هذه السلطة وقيدها ، وهو لا يملك الحرية التامة ، فمن خلال الصورة يتضح أن هذه الشخصية تتحرك من منطلق الغير فهي لا تملك السلطة الكافية والقدرة على التقرير ، فهو بمثابة ورقة تلهو بها الحياة وهذا يضمّر ضياع الرجل كما المرأة ويعاني من سلطة المجتمع التي تحد من عطاءاته .

وتطرق الكاتبة مسألة محورية تدخل ضمن العرف الاجتماعي ، وهي مسألة الشرف الذي يطارد الأنثى منذ ولادتها حتى موتها ، فهي تحمل في جسدها قيمة الأهل والعائلة ككل ، وتعيش تحت

ضغط هذا الهاجس دائما، فالمجتمع يطالب الأنثى بحفظ هذه القيمة التي تعدّ مقياس العفة وفضيلة العائلة، نقرأ هذا في قصة "عذراء بيروت" من مجموعة "رحيل المرائي القديمة" وما حدث مع علياء بطلة القصة "أسرتك حولك مثل أكلة لحوم البشر، والخنجر في يد والدك وزجاجة الديمول في يد أخيك يدفع بها إلى فمك لتشرّبي وأمك سارعت إلى نافذة الشرفة لتغلقها"¹²، فيتأمر جميع أفراد الأسرة على هذه الأنثى ويتم اغتيالها بطريقة وحشية خوفا من المجتمع الذي قد يشهد على عارها وعار أسرتها إلى الأبد؛ هي وحشية المجتمع الذكوري وتفانيه في القسوة على المرأة.

يظل الشرف من القيم الاجتماعية التي يجب المحافظة عليها والتمسك بها، فهو عنوان الرجولة والعفة في المجتمع العربي، وبعض العادات والتقاليد تكون قاسية، رغم أنّ الشرع واضح و الحد فيها بيّن.

غير أن المجتمع يقيم الحدّ، بل أكثر من الحدّ حينما يتجاوز العرف الديني فتُقتل البنت ويظل الذكر سالما من العقاب وهذا ما جاء في هذه القصة التي اجتمع فيها كل الذكور على البنت، بما فيها الجاني" وعلى الشاشة ظهر المذيع "وسيم" يتحدث بهدوء وبتبسم بدقة. دون أن يدري أنّه في هذه اللحظة بالذات تحتضر امرأة لأنها أحبّته.. ورفضت أن تبوح باسمه"¹³. وهذا ما يخفيه ويضمّره الخطاب حينما تتعالى سلطة المجتمع عن محاكمة الذكر، وتبالغ في تسليط العقاب على الأنثى من طرف جميع الرجال، وبحكم سلطة يمنحها لهم المجتمع.

يحاول المجتمع أن يُخضع المرأة لجملة من التصوّرات الجمعية، التي تنظر إلى الأنثى بوصفها كائنا هشا لا يقدر على إدراك الأمور بوضوح، ويوكل سلطته لحماية هذا الكائن داخل مجتمع هو الآخر يرزح تحت قيود يفرضها الواقع السياسي، وفيه تتضاعف القيود ومنها الجانب الاجتماعي والسياسي الذي يُوجّه تصرفات الأنثى.

5- الآخر السلطوي/السلطة السياسية :

ليست المرأة إلّا جزءاً من مجتمع تُمارس فيه سياسة معينة، وما يمسه يمسه ونتيجة أحداث ومواقف معينة ظهرت مواقف متضادة خاصة بعد هزيمة الخامس من حزيران 1967، الذي خلق شرخا كبيرا بين السلطة عموما وشعوبها، وتجلت هذه العلاقة المتأزمة بشكل واضح في الأعمال الأدبية، وكانت بالغة الوضوح بين الأنا الأنثوي والآخر السلطوي في قصة الدانوب الرمادي من مجموعة "رحيل المرائي القديمة"، وكان أثر النكسة واضحا وجليّا منذ مطلع القصة، وكان الكاتبة تجعله وثيقة إدانة حقيقية للآخر الذي كان سبب المأساة فكانت هزيمة حزيران 1967 من القضايا السياسية، وقد رأت أن سببها راجع إلى العرب أنفسهم فكانت الهزيمة بمثابة صدمة كبيرة

لها ولجيلها، ويومها كتبت مقالها الشهير -أحمل عاري إلى لندن- وكانت من القلائل الذين حذروا من استخدام مصطلح النكسة وأثره التخديري على الشعب العربي¹⁴ و طالما نددت الكاتبة بهزيمة حزيران .

تقول:

"- جرح آخر

- يوم آخر

- فندق آخر

- مدينة أخرى.

- وأنا في رحلة تخدير جديدة."¹⁵

هذا الرحيل الدائم هو دلالة على عدم الاستقرار، و الفرار من أرض تحرقها الهزيمة، هو هروب لأجل نسيان ذلك الألم، وضياع الذات العربية وتشردها في مطارات العالم والبحث المستمر عن مخدر ومسكن جرعته بقدر جرعة الهزيمة ذاتها، والتي كانت سببها السلطة، و تحملها الأنا.

وتبدأ مرحلة استغلال الأنثى من خلال صوت البطلة المديعة صاحبة الصوت الشجي والتي تتواطأ برغبة منها لأجل تحقيق الذات " تحالف عليّ طموحي ، وكبتي الأنثوي التاريخي والخبت السياسي"¹⁶ ، فالاستغلال لهذه الأنثى عبر المسار التاريخي وكذا التهميش جعلها الضحية والوسيلة بيد السلطة لتضرب بها وقت الحاجة، الأمر الذي يظهر استغلال المرأة على مرّ العصور وإن اختلفت الوسائل ، وتختصر السلطة السياسية في شخصية حازم ، الممثل الوحيد للنظام ومديرها في الإذاعة ، حيث يُملي عليها البيانات واللوائح التي تقدمها من باب الثقة" كنت ما أزال أقدس السلطة والنظام وأؤمن أن وطني دائما على حق، وبأن حازم هو التجسيد الحيّ لتلك السلطة"¹⁷ ، لقد انساقَت هذه البطلة لما تفرضه الثقافة لصورة الآخر فهو من يملك القدرة العقلية الفائقة على تدبير الأمور والتحكم فيها ، وهو ممثل للنظام وعليها كل الطاعة لأولي الأمر.

غير أنها تكتشف زيف السلطة ونفاقها "أسميه مشؤوما، لمجرد أنني يومها اكتشفت مستنقع الحقائق المروعة التي نغوص في قذارتها ويصر قادتنا على إيهامنا بأننا أبطال في التزلج فوق بحر التاريخ والوجود، مقابل أن يحافظوا على كرسي الزعامات والاستغلال؟ أسبوع الحرب 1967 هل

أنساه، يومها أصدر إليّ حازم أوامره بإخراج كل الأغاني (الوطنية) من مكتبتنا الموسيقية، وبكتابة القصائد الحماسية لإذاعتها بين الأخبار والموسيقى¹⁸.

فالسُّلطة لا تتورع عن العمل بكل الوسائل لتحقيق مآربها، والحفاظ على وجودها وتثبيت كيانتها، وإن كان ذلك بالتضحية بآلاف الشباب وإيهامهم بالنصر المعهود والعزف على وتر نحن شعب لا يقهر، ولنا في التاريخ من ذلك انتصارات صلاح الدين، فهي مراوغة من السُّلطة للحفاظ على الكرسي، وتكون هذه المرأة إحدى وسائلها بدعوى تحرير المرأة، وإن كان في الحقيقة هو استغلال وعبودية.

ثم تقول "ويومها أصدر إليّ حازم أوامره"¹⁹، فهذه التقارير تأتي من فوق إلى أسفل حيث تلجأ السُّلطة عبر قنواتها كوسيلة لإحكام القبضة وتوجيه الرأي العام وإيهامه بالنصر "وفي الأيام الأولى كنت أذيع أناشودة (أمجاد يا عرب أمجاد) وكُلِّي سعادة وأتخيل أخي ورجالنا على مشارف القدس يدخلون نصفها المحتل"²⁰. ومن منطلق الجهل بالأمر كانت هذه المرأة تذيع الأناشيد الحماسية، وكلها سعادة وأمل في تحقيق النصر مثل ما حققه السلف الغابر على مشارف القدس، لكنها في الحقيقة هزيمة نكراء مُني بها الجيش العربي وراح ضحيتها الآلاف.

وتُظهر الكاتبة كذب السُّلطة وزيفها واللامسؤولية والتواطؤ أيضا حين تقول "ومن الفراش المصطخب كموجة تطارد جزيرة هربت" القضية "²¹، وتبين البطلة أن الأمر رغم جلالة فإنه سيان بالنسبة للرجل السلطوي الذي يسعى لإشباع رغباته، فضاعت القضية الفلسطينية لعدم اكتراث الحكام العرب وإشباع ملذاتهم الخاصة.

كما تسعى السُّلطة جادة للحفاظ على كيانتها على حساب الشعوب من خلال استنزافها، وهذا واضح من خلال هذا المقطع: "في صبيحة اليوم التالي -صبيحة يوم الهزيمة - دُهِشت حين ذهبنا إلى الإذاعة ولم أجدها مغلقة!... كنت أحسها كدكان استنفذت أغراضها وباعت بضاعتها ووزعت "مورفينها" وانتهى الأمر"²²، فهذا التعجب يبين أن الإذاعة باعتبارها إحدى وسائل السُّلطة يجب أن تكون مغلقة نتيجة الهزيمة، ومن جهة أخرى تجدها الكاتبة مجرد دكان يُسوّق سلعة مخدرة، فهي مؤسسات لتدجين الشعوب وتوجيه الرأي العام لصالحها، وهذا ما ظهر من خلال إذاعة أخبار عن الانتصار في حين أن الجيوش تتكبد في أرض المعارك الهزائم النكراء.

تطرح البطلة تساؤلا الذي تخفي وراءه استغرابها وكذب السُّلطة، وتدين هذه الأنظمة الحاكمة من خلال إيجاد مبررات لهذه الهزيمة بقولها "فوجئت بأن الإذاعة لم تغلق دكانها" حازم

ينتظرني وبيده تعليق عليّ أن أقرأه .. (ثرى ما الذي يتابعون بيعة؟) وحملت تعليقه الذي يبين فضائل الهزيمة للعرب وكم كانت ضرورية²³.

غير أن السلطة لا تمل في ترديد شعاراتها ، زيادة على أنها تجد حلولاً للمشاكل والبحث دائماً عن جديد يشغل هذه الشعوب، وذلك حينما أفرغت الهزيمة من محتواها وأصبحت مجرد نكسة. وعلى الشعوب أن تتعظ من الحادثة لتبني وجودها وتحقق انتصارها وهذا ما خلق فجوة بين الشعوب وحكّامها .

وتحكم السلطة قبضتها القويّة على أفراد شعبيها، وتعمل على تدجينهم وتطويعهم لخدمة أغراضها ومصالحها الخاصة " أن نُؤجر حناجرنا ، وأن نستنكف عن التفكير وعن طرح مآسينا الحقيقية التي تشغلنا في كتاباتنا... وأن أكتب معلقات تتحدث عن الخيول في عصر الصواريخ. وعن أمجاد "أمجاد يا عرب أمجاد في زمن الهزيمة ، وعن الحب العذري... بينما الرعب يجوس بلادنا بالدمار أو أن أكتب ما أمر بكتابته بلغة غدارة مداورة مخادعة تخفي الحقيقة تحت برقع الوهم بالعظمة"²⁴.

تفرض السلطة سياسة معينة تُخضع لها الكل ، كتابة لا تخرج عن إطار المدح والتطليل والكتابة عن الأحلام والبعث عن الحقيقة وهذا تخدير للشعوب ، والسلطة تنبذ الكتابة التي تُعري فضيحتها لأنها باختصار تخشى ثورات تعجل بفنائها أو تقوم بإيذائهم حين الممانعة "لا تحاولي الاحتكاك بي حتى بحجة العمل ، لأنك صرت غانية ..سيئة السمعة"²⁵ وهذا إنما يضمّر مخاتلة السلطة ومحاربة معارضيهما ولجوؤهما إلى العنف والنفي وأحياناً كثيرة إلى التصفية الجسدية أو إلحاق العار بهذه المرأة إذا لم تمثل لهذه السلطة .

6- الآخر العدو.

ظهرت العلاقة بين الأنا والآخر في فترة تاريخية ربطت بينهما أثناء احتلال الغرب للدول العربية دون استثناء ، وبناء على العديد من الممارسات العدائية من لدن الآخر الذي عمل على تشريد المجتمعات وهلاكها والتمثيل بأفرادها بمجرد احتلالها ،أوجد ذلك نوعاً من الصراع والصدام ، عندما كان الآخر منطلقاً من نزعة فكرية ثقافية مبنية على الجانب العقلاني ،، حيث أباح لنفسه الأحقية في استغلال هذه الشعوب وفرض وصايته عليها بحكم التفاوت ؛ فهو يمتلك العقل الذي يمكنه من قيادة هذا الهامشي البدائي الذي يحتاج إلى ترويض ، وهذا ما يخول له أحقيته في بسط نفوذه بهدف تكوين نظام أحادي مبني على المركزية الفكرية الغربية بنظرة استعلائية.

تظهر صورة المستعمر الذي جثم على أرض الجزائر طيلة قرن وثلث القرن، حيث ورد ذلك بوضوح في قصتي "براري شقائق النعمان" و"مغارة النسور" من مجموعة "عينك قدري".

برز في قصة "براري شقائق النعمان" ذلك الصراع القائم والكمّ الهائل من الحقد والكراهية بين (الأنا المقاوم والآخر المستعمر) في تساؤل الضابط: "الضباط الثلاثة الجالسون في المقعد الأمامي ما زالوا يعربدون، وكأننا لم نخلف في القرية وراءنا رمادا من البيادر ولهبيا في لحيّ الشيوخ، وسهولا دامية الحشائش كبراري شقائق النعمان"²⁶.

فهذا المقطع أشبه بلوحة درامية عن بقايا حرب، بل إبادة جماعية تبين غطرسة الآخر وجرمه والحقد الذي يدفعه للقضاء على الشعوب والتنكيل بها، وتظهر أكثر بشاعة المستعمر في ممارسات عنيفة على قرية بريئة سكانها من ضعاف الأطفال و الشيوخ، مع علمه اليقين أن رجال الحرب يرابطون في الجبال الشامخة ليخلف وراءه أراض محروقة كتمثيل لفشله، ثم يقيم بعدها أفراحا على جثث الأبرياء ليعكس هذا المنظر شيطنته، وإن صادف وقبض على أحد المجاهدين فإنه يقيم مأدبة ووليمة للعريضة توحى بانتصاره المزعوم في الحرب كلّها واهما نفسه بقدرته على القوة والاستمرار.

وهذه الصورة إنما تضمخ خلفها حقيقة الأوروبي الحضاري المثقف العاقل الذي جاء حاملا لواء الفتح الحضاري لهذه الشعوب التي تعيش في ظلمات الجهل وعليه تنويرها، والأخذ بها إلى الواجهة الحضارية والرقى من مبدأ إنساني، غير أنه أبدى عكس ذلك في عنفه الزائد، كما يكشف تصرفه عن بدائيته وتوحشه ورغبته الاستعمارية.

وفي مقطع آخر تصف فيه الكاتبة المجاهد الذي ثارت دنيا العدو حوله وأبيدت لأجله قرية بأكملها" ويقول الجرح الدامي في كتفه أنه لم يعد بحاجة إلى حراسة"²⁷، وهذا ما يظهر درجة العنف الممارس عليه وجبروت الآخر، وبالمقابل يضمخ تحته ذلك البأس الشديد ويبين أكثر شجاعة وشدة مقاومة المجاهد الجزائري الذي يقاتل إلى آخر رمق، ويستमित في القتال لأجل وطنه السليب، وهذه الصورة الدرامية للمجاهد يكمل تفاصيلها هذا الوصف: "أخايد تزداد عمقا كلما أسرع السائق الثمل وازدادت أسياخ الريح الجليدية التي تنغرس في جرحه حدة وهمجية"²⁸، فهذا المجاهد قد وصل إلى حد أتى فيه على كل قُوَاه .

لم تتوقف بشاعة الآخر عند تحطيم القرية وأسر هذا البطل، بل تعدت إلى التمثيل بهذا الأسير المكون في عربة الجيب لا يقدر على الحراك، وقد وقع فريسة بيدي الجندي الثمل الذي يدفع بالعربة في الأماكن العالية والمنخفضة في حركة جنونية، فيؤثر ذلك على الأسير ويزيده ألما، فالآخر

لم يحفظ قانون الأسر الذي تدّعيه المنظمات الغربية المتحضرة الراعية لحقوق الإنسان، ولإبراز المفارقة بين الأنا والآخر تورد القاصة مقطعا على لسان الجندي الفرنسي " أنا خائف ..خائف كلحظة أحسست أنفاسه تلسع ظهري أثناء المطاردة.. كان يستطيع أن يغمد خنجره في ظهري لكنه لم يفعل.. لماذا لم يفعل؟ لماذا لم يقتلني؟" ²⁹

إذ توحى الأسئلة المتتالية بتسامح الجزائري الذي منح الآخر فرصة النجاة ولم يغمد الخنجر في ظهره عندما كان في مركز قوة وعفا عن غريمه ، حيث تبين مضمرة الخطاب التسامح الديني والعفو عند المقدرة في مبدأ الجزائري المسلم مع الآخر الهتمي الذي يبدي عنفه مع الأسير، وهذا تصحيح للمفاهيم المغلوطة عن الجزائري فهو ليس حقيرا ،ولا قاتلا ،ولا مرتزقا ،ولا وحشا ، كما يصوره الاستعمار ليبرر فعلته الدنيئة وهذا ما يبينه هذا المقطع التالي : " تصور هذه الحقارة ..كيف يطردوننا من أراضيهم التي مضت علينا أعوام ونحن نهيمها ..نهيمها بلطف ورقة دون أن يشعروا .تصور.. إنهم وحوش لا يريدون أن يقاسمونا أرضهم...هل ترضى أن نموت جوعا " ³⁰

فالمستعمر جثم على الصدور ما زيد عن القرن، ينهب في صمت مستفيدا من جهل هذه الشعوب ، وحينما ثارت ضد الوضع تصدى لها بالموت الحتمي ، حيث يرى ضررهم كبيرا ولذا يجب إبادتهم وقتلهم لاستغلال أراضيهم دون منازع، وتصبح الغاية من ذلك هي سرقة ثروات البلدان وإقصاء أصحابها وتجويعهم .

غير أن هذا الجندي المرتزق وقف على طرفي الحقيقة حين رأى أنهم في قمة النبيل والإنسانية وهذا ما جعله يقلب حساباته التي أسس لها حينما فرّ من موطنه بعد جريمة قتله لعشيقته في قوله : " ألم يعلم أي أحلت الأفحوان في خدي سوزي إلى براري شقائق نعمان دامية؟ وأني في كل يوم أغرس خنجري في جسد ملتهب فأحيل خضرة حشاش أرضه إلى براري شقائق نعمان دامية " ³¹ ، فهذا الإجرام انتقل معه ليمارسه على ضحايا جزائريين ، ويظهر ذلك بوضوح في الحوار التالي:

"- قال لي: أنت مجرم وسنعيدك إلى بلادك

- أنا أكره القيود سأفعل ما تشاء

- هناك صحاري من تبر.. اذهب لصيد الأرناب هناك .. اقتل ونحن نشترى موتك نتغذى بلحومها" ³² .

يعكس هذا المقطع الحوارية تلك الصفقة الرخيصة التي تمت بين المجرم الفار من العدالة والمستعمر لثبّين في الحقيقة إجرام كل منهما، وقدرته على التفنن في طرق القتل والتنكيل بالآخر المسالم القابع في أراضيه.

ما يكشف أن هذا الاستعمار جاء بطابعه الإجرامي ، و اعتمد في حملته على المرتزقة والمجرمين والأقدام السوداء ، لتكون له اليد التي تضرب و تقتل وتنهب تحت غطاء رسمي ، لتعويض خسارته والنهوض بالاقتصاد الفرنسي المنهار جراء الحرب العالمية الثانية، إذ تعود البواخر إلى الموانئ الفرنسية محملة بمختلف الثروات ، وهذا ما كشفت عنه الخطابات ما بعد كولونيالية و " اتهامها للحضارة الغربية في مرحلتها الاستعمارية بسقوطها في تناقضات مريعة أو افتقاد هويتها الإنسانية وعدها حضارة مخنثة تزعم تمسكها بالإنسانية ذات النعومة المفرطة، وتنسب لنفسها احتكار دعاوي المحبة والسلام والعمل على تحضير الشعوب المختلفة وترتكب بحق تلك الشعوب أبشع أشكال الإبادة الجماعية الممنهجة لتظل آخر المطاف حضارة الغاية تبرر الوسيلة"³³.

وتؤكد الكاتبة غطرسة الآخر وجرمه وجبروته حينما تورد هذه العبارة على لسان الآخر حين يدين نفسه " وغرقت في أوحال السين حتى ثمالة مفجعة"³⁴.

تخفي هذه البنيات اللغوية خلف جمالياتها أنساقا خطيرة تضمّر بشاعة الآخر على مدى سنوات احتلاله واضطهاده لما تشير إلى نهر السين الذي يقبر في عمقه جثث الجزائريين ويذكر بأحداث مؤلمة تقترن برمي الجزائريين أحياء في النهر من طرف الشرطة الفرنسية ، بعدما نكثت العهد وأخلفت الوعد ونكّلت بهذا الشعب الضعيف ، ورمت به في أوحال نهر السين ليظهر ذلك حجم الجريمة التي تبين عفونة التاريخ الفرنسي.

ويتعدى الأمر حدود التنكيل إلى الاستهزاء وهذا ما يتجلى في القراءة الضمنية لهذه العبارة " هاته إلى المرقص " والمرقص هنا كناية عن مكان لتعذيب الجزائريين، أين تُشد الأقدام إلى الأعلى وترسل الرؤوس نحو الأسفل وتوصل هذه الأجساد بأسلاك كهربائية وكلما سرى فيها التيار اهتزت الأجساد ألما و ذعرا، ففي نظر الآخر هي مرقص للعريضة واللهو والاحتفال، يذكره براقصات حانات السين وهذا إنما يوحي بما يعانیه الجنود من فراغ روحي زيادة على مازوشيتهم .

وتبين أن الآخر المستعمر يحمل بذور فنائه من خلال ممارساته الشنيعة ضد أشخاص كانوا الوسيلة التي يضرب بها ، فهو ناكث للعهود دائما لا يرغب إلا بتحقيق ذاته ، حينما يتعامل بوحشية مع الخارجين عن قانونه الجائر " أيها الجبان اقتله أو نقلك.. خذ المسدس...اقتله لأجل شرف فرنسا .. اقتله"³⁵ ، وبذلك تتم هذه الجرائم تحت غطاء رسمي تزكيه السلطة وتحمي القائمين به ، بل تزكي

فعلهم بامتيازات وأوسمة تشجيعية لتظهر أنها ليست ممارسات فردية يعاقب عليها القانون ، بل إنّ كلّ شيء ممنهج ومخطط له مسبقا .

ويتم إصدار الأمر ويصبح الامتثال له وتنفيذه عرفا والخارج عن ذلك بمثابة الخارج عن قانون الدولة ، وتوجب تصفيته وهذا ما حدث مع الجندي المتعاطف مع المجاهد الجزائري كما يتجلى في هذا المقطع: " الفتى المشرق الوجه الكامن في أعماقي ينطلق مع حشرجتي يقترب من وجهك بإصرار معذب.. يلتصق بمقلتيك متشبثا متأملا .. يرى فيهما بوضوح ظل احترام ورضى ويرى أنهما تهتفان ... أيها الشجاع لم يكن بحاجة إلى أكثر من ذلك أيها الصديق الجزائري"³⁶ . وتبقى سياسة التصفية هي القائمة في قاموسه حفاظا على كيانه .

فعندما تستमित الشعوب في الإيمان بحقها في الحياة الكريمة يرضخ الآخر، وتستيقظ إنسانيته ، وهذا ما يوحي به المقطع من احترام الآخر الفرنسي للمجاهد الجزائري الذي أبدى شجاعة وقوة وهي تورية لقضية الضابط الفرنسي مارسيل بيجار الذي انحنى إعجابا واحتراما للبطل العربي بن مهدي وقدم له تحية احترام ، وقال فيه قولته الشهيرة: "لو كان لي ثلة من أمثال العربي بن مهدي لغزوت العالم"

و من منظور نسوي تحاول الكاتبة توزيع المهام بين المرأة والرجل والمساواة بينهما، لأنّ الكاتبة مؤمنة بقضايا المرأة ودورها الكبير، في القيام بالبطولات والخوض في القضايا الكبرى.

و نواجه في قصة (مغارة النسور) شخصية نسوية، رغبة منها في إعلاء الصوت النسوي والغرض منه الوقوف على ما قدمته المرأة الجزائرية للثورة ، وأنها كانت بمعية الرجل جنبا إلى جنب لأجل التحرير ، ووقفت ضد الآخر بالطريقة التي تراها مناسبة ومؤثرة .

لتقدم البطلة التضحية الكبيرة بفضل عملها في معقل العدو لتكون قريبة من مصدر المعلومة حين تنقلها إلى إخوانها الجنود ، وهذا ما جسده نساء الجزائر طوال فترة الاستعمار فتقول الكاتبة على لسان البطلة: " ثلاثة أعوام وأنا أقول للبعوضة العرجاء : أمرك سيدي! ثلاثة أعوام وأنا أحمل له زجاجات الخمر ليشرّب نخب حيتان الأطلس"³⁷ ، يجمع هذا المقطع بين النقيضين (السيادة والحقارة) فالظاهر فيه الولاء للآخر وخدمته على أنه سيد في حين يخفي الرفض والحقد والكرهية لهذا الحقير الذي كان سبب آلامها ووحدتها وتهجير أهلها، وسلب النسوة ليكون خدامات لديه، حين يسحب منهن كرامتهن ويذلّهن ، لكن في هذا المقطع المرأة الجزائرية المجاهدة تحملت الإهانة لتكون اليد التي تضرب بها الثورة عدوها في عقرداره.

فالمراة هنا هي الفاعل المؤثر، الذي يعمل على نقل المعلومة إلى المجاهدين دون خوف كما جاء في قولها "أخبرهم أن ثمة صندوق من المتفجرات ترقد في أقبية قلعة الضابط ... مئتا صندوق لإبادة القرى النائرة حول قلعته المهترئة.. مئتا صندوق تزرع الحديد في أحشاء الأطفال تبصق الدخان في رئات النساء . وتحصد البيادر.. مئتا صندوق احتفل بوصولها منذ ساعات"³⁸.

يظهر فرح الضابط ونشوته لأنه تحصل على آلة فناء وإبادة القرى المجاورة لقلعته ، لكن فرحتها ستفوق فرحته حين ما تخبر المجاهدين بمكان المتفجرات التي ستستعمل ضد المستعمر نفسه وتقضي على تواجده .

فهي لا تختلف عن الرجل في المواجهة والندية، وهي دعوة من الكاتبة إلى المساواة، فالقضايا الكبرى لن تتحقق أهدافها إلا بتعاون المرأة والرجل على السواء ، وينقلب المفهوم من المرأة الضعيفة المستكينة التي تتعرض إلى الإهانة لتصبح قوة تجابه المستعمر الوحشي، هذا الآخر الأوروبي الفرنسي على وجه التحديد .

وتنقلب موازين الكفة وتصبح هذه المرأة الضعيفة المهمشة مركز قوة وتميز وتفرد ، "إن بسمة خادمتهم الجزائرية الصامته التي انتزعوها من زوجها في القرية المجاورة، بسمة تتجسس عليهم وتتناهر بالصمت .. بسمة تنقل ما يتدفق من فم الضابط الأعرج الثمل"³⁹ ، فبسمة التي مارس عليها هذا الرجل الأبيض سطوته وانتهك حرمتها حين انتزعها من زوجها ، تحولت إلى قوة إيجابية قاومت ضعفها واستلابها ضد العنف الرجولي بقوة أشد حينما قهرت العدو في عقرداره .

وتقول في مقطع آخر: " كادت الدمعة تطفر من عيني .. لكنني جمدها فجأة ..أنا لا أبكي .. قد أمزق قد أعذب بالكهرباء كما عملوا بأخي في زاوية القبو الطحلبية .. وقد أشوى في الفرن حية كالفتى الذي رفض أن يتحدث عن مغارة النسور.. لكنني لا أبكي ... لا أحد يموت هنا لا أحد يبكي ..كلنا نحفر قبورا للقراصنة"⁴⁰ ، فُتظهر هذه الممارسات الشنيعة الطرق التي يتفنن بها العدو في التعذيب وأنه لا يفرق بين المرأة والرجل، كما بينت ما تملكه المرأة الجزائرية من قدرة على الصمود وتحملها مع أخيها الرجل إنها قضية أمة بكاملها وقدرة الشعب على التحمل والصبر والجلد ليظهر شدة الثورة وبأس أصحابها ، وأن الموت من أجل الوطن هدف وغاية حتى يتحرر الوطن ، ويكون ذلك بتكافل المرأة مع الرجل .

وتبقى للآخر العدو صورة واحدة في المخيال العربي ؛ صورة ارتبطت بالعنف والخوف والدمار، مهما اختلف حضوره وتواجده، وتفضح صورة العدو الإسرائيلي في ممارساته الشنيعة ضد الشعب الفلسطيني، وسياسته الخفية في القضاء على هذا الشعب الأبي وعمليته المدبرة

والتخطيط لتشويه خارطة الحدود وتغييرها وإفساد الأرض والاستيلاء عليها لطمس معالمها، وهذا ما تجلى في العديد من الصور ومنها هذا المقطع " هذا الخط يفصل بين القدس المحتلة والقدس الغربية ... دار عبي تقع خلف هذا الخط " ⁴¹.

ولقد خلفت هذه السياسة وراءها غربة المواطن العربي في القدس المحتلة وضياعه بين اليهود " من النافذة أستطيع أن أرى ذلك العلم الغريب بين الغسيل المنشور ، إنهم يتابعون حياتهم العادية بسلام .. ونحن .. ونحن وهناك جدار الرصاص... ربما كان خيط رفيع من الدماء على التراب بين عتبة دارنا وذلك الجدار " ⁴².

ويظهر العدو الإسرائيلي في قصة جريمة شرف من مجموعة - رحيل المرافئ القديمة- بكل بشاعته في معاملاته السادية و الفظة " دخل الإسرائيليون القرية ومعهم كلاب مخيفة شرسة فانتظمتنا في صف واحد ... كانت كلابهم كالذئاب الجائعة وكانت تمطر ، وبدأ أطفالنا بالبكاء وحاولت قتل شاربي وشعرت للمرة الأولى بأنهما ماتا ، كنت فيما مضى أحس بهما شيئاً حياً ينبض وينتصب، وشعرت أن شرايينهما تقطعت وأعصابهما قد شلت وأنهما انسدلا فوق فمي كجثث الطيور المصابة " ⁴³.

ويحضر الآخر الإسرائيلي في موقع قوة مدججا بالأسلحة والكلاب الشرسة لإفزاع الناس مع إصدار الأوامر، والأمر بالامتثال الكلي لها، وفي ذلك نظرة استعلائية للنيل من كرامتهم وكبريائهم وتمريغ الرجولة والأنفة العربية بالتراب كاشفا عن انتصاراته في اجتياح الأراضي اللبنانية .

ويسعى العدو جاهدا للفساد في الأرض والانتقام الفعلي " ووقفنا صفا طويلا . نادوا عليّ باسمي كيف عرفوه؟ بالعربية كانوا يتحدثون، وقد زاد ذلك في خوفي سألوني أين بيتي . أرشدتهم إليه بنظرات صامتة . كانوا يعرفونه فيما يبدو . قال لي أحدهم : سنكافئك على إيوائك للإرهابيين والمخربين " ⁴⁴. فقد شنت القوات الإسرائيلية العديد من الغارات والتفتيش في عملية اجتياح للجنوب للبحث عن أعضاء المنظمة والمناضلين من حركات فلسطينية مقاومة .

يحضر العدو وقد عاين المكان مسبقا ودرس إمكانية التّجّاح والإخفاق؛ فهو عرف طبيعة هذا الشعب، ويتحدّاه عبر لغته من مبدأ من عرف لغة قوم أمن شرهم، لكنه من منطلق الشرّ يعرف الأشخاص وأماكن تواجدهم ويكون مبادرا بالهجوم لإيمانه القوي باعتبار الهجوم أحسن وسيلة للدفاع حين يصف الشخصية بالإرهابي والمجرم. فيمنح نفسه حقّ التنكيل به وقتله تحت ذريعة حقّ الدفاع عن النفس .

ثم يبدأ بسياسة الهدم وتسوية البيوت بالأرض بهدف تهجير الأهالي، وحينها يمكنه ذلك من الاستيلاء عليها وإقامة قواعده بها ، " وبسرعة زرعوا بعض الرزم قرب أساس بيتي ومدوا بعض الأسلاك وبعد دقائق كان البيت بأكمله يتطاير في الهواء ومعه تتطاير صور خمسين عاما من حياتي فيه"⁴⁵ .

إنها عملية تشريد الأسر وترحيلها وتاريخها وهويتها للاستيلاء عليها بعدما يترك أرضا محروقة توحى بحجم العنف، الذي مارسه ضدّ أطفال ونساء وشيوخ ، وما ارتكبه من مجازر بالجملة وإن كان هدفه الظاهر العناصر الفدائية إلا أن الغاية التدمير الكليّ والهيمنة التامة . " بين ذراعِي احتضنت ابنتي هكّذا. كنّا نقطف التبغ.. وكان الليل منعشا والسماء تضيء كأول فجر بعد الطوفان، حدث الأمر بسرعة ... أضواء كشافه ورضاص، زخات رضاص ثم انطفأ كل شيء إلا صراخ ابنتي خضراء ركضت إليها، كانت تنزف مثل طائر نادر صرعه الصيادون للتو"⁴⁶ . فإن كانت هذه الأسر تعيش حياتها الطبيعية في أمان ، فإن الآخرياتي ليروّعها ويبعث فيها الخوف والألم دون أن يستثني أحدا حتى الأطفال يكونون ضحايا لهذا القصف الذي يخلف الخراب .

كما يبالغ في وحشيته حينما يتعقب الفارّين من الموت في الطرق لكي يقطع دابرهم، ويثأر منهم؛ هي حرب إبادة يمارسها العدو بهدف بناء دولة من المحيط إلى الخليج " يريدون الأرض ... يريدون أرضي وتبغني وبيتي"⁴⁷ . فهدفه الكليّ هو الاستيلاء على أراضي الجنوب لتصبح منطقة عازلة تعيق تحرك الفدائيين .

وحينما تُنتزع الأرض وتُصادر يقيم حولها الحواجز وتصير من ممتلكاته ، " في الليل والنهار كالسارقين لنقطف بعضا من جنّي موسمنا ... في العام الماضي زرنا الأرض، وشقّوا طريقهم في أرضي وأخذوا قسما منها، والمحصول الذي زرعه حصده جراتهم وجرافاتهم ... وما تبقى لنا من أرضنا صرنا نتسلل إليه لنسرق محصوله سرقة"⁴⁸ . حيث تنقلب الموازين ويصبح صاحب البيت هو الغريب الذي يتسلل كسارق إلى أرضه التي استولى عليها المعتدي .

لقد خلف هذا العدوان المستمر العديد من المشاكل والظروف الاجتماعية الصعبة، وأثار تدمرا في بعض النفوس التي كشفت عن رفضها لنقل المقاومة إلى أراضي لبنانية، فخلق اختلافا غذته النعرات الطائفية " إسرائيل هي الراج الوحيد قالها عمر بينما كان الشجار بين ابنه عليّ وجول خطيب شقيقته يتعالى ... عليّ يرفض زواج شقيقته خضراء من جول يقول له: ستصيرون جميعا مشردين محكومين بالفداء وستصير زوجاتكم أرامل إذا لم تقفوا معنا لنحارب معا ابني عليّ يعتقد أن جول ورفاقه هم سبب مصائب القرية وويلاتها"⁴⁹ .

تستمر صورة العدو بالتفاصيل نفسها وإن تغير حضوره من فرنسي إلى يهودي أو إنجليزي، فقد جاء ذكر هذا الأخير في قصة الساعتان والغراب ، التي تعرضت الكاتبة في متنها للاحتلال الإنجليزي لليمن وما ترتب عن وجوده من حالات اجتماعية سيئة حملت الشعب على الثورة ضد المحتل، إذ تقول في أحد المقاطع: " فضل عربي الاسم .عربي اللسان. عربي الوجه. عربي النَّزْف ... عربيّ العطاء... عربيّ الثورة والكفاح والألم... ففي قدميه ما تزال آثار سلاسل وقيود الجلاد الإنجليزي"⁵⁰.

فهذا الأنا العربي بكل ما فيه من صفات خلقية وخلقوية تبين فوقيته، غير أن الآخر عمل على إيذائه، وإهانته ، وما زالت آثار وحشية المستعمر في قدميه من جراء تعذيبه، وإن كانت الصورة تقتصر على فرد واحد فإنها توحى بالشمولية والكلية لشعب تم استعباده من طرف الاحتلال الإنجليزي . " فالإنجليز لم يخرجوا من عدن إلا بعد أن خلفوا لها تركة هائلة من التخلف والفقر والمشكلات .. وخلفوا للثوار ألغاماً من المصاعب تنفجر واحداً بعد آخر "⁵¹

إنه الآخر الذي يسلب الثروات وخيرات الشعوب ، ويستنزف القوى ويقتل وينهش ويمارس كل طقوس الاستنزاف ولا يكتفي عند هذا الحد حينما يضرب ذاكرة الشعوب ويُزوّر تاريخها بهدف طمس الهوية ، " في الداخل الآثار تضحّ حياة وأصالة ... عيون التماثيل من الأحجار الكريمة، أكثرها مسروق - المستعمر الذي يسرق عيون أبناء هذه الأرض ... يسرق عيون تماثيلها ... آثار مدهشة الجمال الفني والراقيّ الإنساني ... لاحظت تماثيلها كلها ترتدي الأحذية "⁵².

خاتمة:

ومن خلال هذا الطرح وما تم إدراجه نقف على حقيقة أن الكاتبة رغم توجهها النسوي وما آمنت به من قضايا لتحرر المرأة ، إلا أنها لم تستثن الرجل باعتباره الطرف الموازي في هذه المعادلة لإيمانها أنّ قضية تحرر مجتمع بكامله يستدعي تحرر الطرفين الأنثى وكذا الذكر.

وقد غاصت في بعض القضايا الاجتماعية التي كَبَلت الأنثى والذكر معا ، كما عرّت هذه السلطة وجبروتها وممارساتها التعسفية وسعها لتهميش المرأة خاصة وإقصائها عمداً ، وهذا ما يحسب للكاتبة مواقف بطولية، وقفت فيها شاهرة القلم من أجل قضايا المرأة خاصة في فترة كان من العصيب الوقوف عندها بالكشف والجلء ، وهذا ما جعل المجتمع العربي بعاداته وتقاليده يأخذ موقفاً من الكاتبة ويدفع بها إلى مغادرة الوطن والاستقرار في الغرب .

المصادر والمراجع:

1. نبيلة فايز السيوف: قضايا المرأة بين الصمت والكلام وللرواية النسوية العربية ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الدراسات العليا ، الجامعة الأردنية ، 2002، ص 13.
2. غادة السمان: القمر المربع، منشورات غادة السمان ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1963، ص 8.
3. غادة السمان لا بحر في بيروت ، منشورات غادة السمان ، بيروت ، لبنان ط 1963 ، ص 133.
4. -غادة السمان : رحيل المرافئ القديمة ، منشورات غادة السمان ن بيروت ، لبنان ، 1973، ص 52.
5. العقاب فتيحة: قصائد غادة السمان بين الالتزام والحرية -دراسة في ديوان الأبدية لحظة- مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري جامعة بسكرة ، الجزائر، العدد الحادي عشر، 2015، ص 355.
6. غادة السمان: عينك قدري ، منشورات غادة السمان ، بيروت ، لبنان ، ط 1، 1962، ص 172.
7. صلاح صالح :سرد الآخر، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط 1 ، 2003، ص 11.

الهوامش:

- ¹ - نبيلة فايز السيوف: قضايا المرأة بين الصمت والكلام وللرواية النسوية العربية ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الدراسات العليا ، الجامعة الأردنية ، 2002، ص 13.
- ² - غادة السمان: القمر المربع، منشورات غادة السمان ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1963، ص 8.
- ³ - غادة السمان لا بحر في بيروت ، منشورات غادة السمان ، بيروت ، لبنان ط 1963 ، ص 133.
- ⁴ - المصدر نفسه ، ص 148.
- ⁵ - المصدر نفسه ، ص نفسها.
- ⁶ - المصدر نفسه ، ص 154.
- ⁷ - المصدر نفسه ، ص 157.
- ⁸ - المصدر نفسه، ص نفسها.
- ⁹ - المصدر نفسه ، ص 7.
- ¹⁰ - غادة السمان :رحيل المرافئ القديمة ، منشورات غادة السمان ن بيروت ، لبنان ، 1973، ص 52.
- ¹¹ - غادة السمان :القمر المربع ، ، ص 23.
- ¹² - غادة السمان: رحيل المرافئ القديمة ، ص 151.
- ¹³ - المصدر نفسه ، ص 152.
- ¹⁴ - العقاب فتيحة: قصائد غادة السمان بين الالتزام والحرية -دراسة في ديوان الأبدية لحظة- مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري جامعة بسكرة ، الجزائر، العدد الحادي عشر، 2015، ص 355.
- ¹⁵ - غادة السمان : رحيل المرافئ القديمة ، ص 6.
- ¹⁶ - المصدر نفسه، ص 9.
- ¹⁷ - المصدر نفسه، ص 13.
- ¹⁸ - المصدر نفسه ، ص 12.
- ¹⁹ - المصدر نفسه، ص نفسها.

- 20- المصدر نفسه، ص نفسها.
- 21- المصدر نفسه ، ص14.
- 22- المصدر نفسه ، ص نفسها.
- 23- المصدر نفسه ، ص نفسها.
- 24- المصدر نفسه ، ص22
- 25- المصدر نفسه ، ص36.
- 26- غادة السمان: عينك قدري ، منشورات غادة السمان ، بيروت ، لبنان ، ط1، 1962، ص 172.
- 27- المصدر نفسه ، ص نفسها.
- 28- غادة السمان: المصدر نفسه ، ص172.
- 29- المصدر نفسه، ص 174.
- 30- المصدر نفسه، ص175.
- 31- المصدر نفسه ، ص 174.
- 32- المصدر نفسه ، ص172.
- 33- صلاح صالح : سرد الآخر، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط 1 ، 2003، ص11.
- 34- غادة السمان : عينك قدري ، ص 174.
- 35- المصدر نفسه ، ص178
- 36- المصدر نفسه ، ص179.
- 37- المصدر نفسه ، ص69.
- 38- المصدر نفسه، ص64.
- 39- المصدر نفسه، ص66.
- 40- المصدر نفسه ، ص 70.
- 41- المصدر نفسه ، ص 167.
- 42- المصدر نفسه، ص 169.
- 43- غادة السمان : رحيل المرافق القديمة، ص 104
- 44- المصدر نفسه ، 104.
- 45- المصدر نفسه ، ص نفسها.
- 46- المصدر نفسه ، ص ص 97-98.
- 47- المصدر نفسه، ص99.
- 48- المصدر نفسه ، ص نفسها
- 49- المصدر نفسه ، ص 106.
- 50- المصدر نفسه ، ص 120.
- 51- المصدر نفسه ، ص168.
- 52- المصدر نفسه ، ص 136.